وراء الستار

من نعم الله سبحانه عليه حين ابتلاه بهوس المسرح والسينما أن ابتلاه فى الوقت نفسه بضيق ذات اليد ؛ فهو فى المسرح ينحط فى مقعد خلفى فلا يضايقه صوت الملقن أو الطلاء البشع الذى يكسو وجوه الممثلين والممثلات ، وإذا دخل السينما هرول شوطاً طويلا ثم جلس فى مقعد يشعر فيه بأنه يشارك أبطال الفلم فى حياتهم : همسهم له وحده ، وابتسامتهم تحية يخصونه بها دون الحاضرين .

وهو أيضاً مشغوف بالمسارح الاستعراضية ؛ إذ يجد فى موسيقاها وتهريجها وراقصاتها أشباه العاريات نشوة لروحه المتعطشة للمرح . . .

ودخل أحد هذه المسارح ذات مساء وهو هامد الجسم متعب الروح تدل نظرته المنطفئة على الهوة الكبيرة بين آماله وأوجاعه ، وقارب البرنامج نهايته وعزفت الموسيقى لحناً معروفاً ، ثم ارتفع الستار عن فتاة شقراء ، شاهد من قبل كثيرات من أمثالها ، وكاد يحول بصره عنها ؛ فحركاتها مفتعلة وقفزاتها نكراء ، ولا فتنة فى ثوبها الفضفاض الذى شقه من أمام مقص عابث فكشف عن ساقين عاريتين يتموج عليهما النور والظلال . وضحك فى نفسه إشفاقاً عليها وهو يقول : « تتعب نفسها فى لا شئ ! » وفجأة أزاحت الستار الجانبى يد يلمع فيها خاتم وخرج من ورائه شاب طويل القامة ، ممشوق القد ، هو صفحة مزقت من « ألبوم » الخياطين : بذلته السوداء ذات الذيل قد ركبها على جسمه كواء صبور ، وربطة عنقه البيضاء قالب من المرمر ، والسلسلة الفضية المدلاة إلى جيب سرواله قيست بالمليمتر ، ولولا خط الفرق الناصع كأنه مرسوم بالمسطرة ، لما اختلف شعره فى لونه ولمعانه وتماسكه عن حذائه المصقول .

وقف الشاب لحظة وقد رفع كتفيه ، وقطب حاجبيه ، يرمق الفتاة كما يرمق الصقر الحمامة ، وزادت الراقصة فى حركاتها واضطرابها وأخذت تذرع المسرح جيئة وذهاباً . ثم قطعت الموسيقى دقة عالية من الطبلة فانقض على

فريسته وطوقها بذراعه ، فجفلت منه ، فلاحقها وأطبق عليها من جديد ، وخرست الطبلة وارتفعت أصوات الكمان بلحن بطئ ناعم . ماذا به يسيرها إلى الأمام و إلى الخلف وهى خاضعة بين يديه و إن كان الغضب قد كسا وجهها ، ولكن على من ؟ يا لله ! ما هذه الرجولة ! وما هذا السلطان ! استيقظ صاحبنا من سباته وامتدت رقبته قليلا . وجه هذا الراقص وجه صارم ، وشفتاه مطبقتان ، وعيناه قاسيتان ، ولمساته رغم نعومتها تنبئ بأنه اعتاد أن يأمر فيطاع . . . وانفلتت منه الفتاة معرضة عنه ، فلم يبال ، وانصرف عنها ودار على نفسه مختالا وقد ثنى ذراعيه وراء ظهره كهذه الديكة المركبة على المداخن حين تضربها الريح . . . ثم اقترب منها وجذبها إليه جذبة لو كان فيها بقية من الكرامة لصفعته من أجلها على وجهه . وتمتم صاحبنا يقول : « هكذا المرأة حينما تحب » . شدها ورفع جسمها على كفه فاستسلمت كأنما ترقد على فراش وثير ، أما ساقها المدلاة فمن بعض الدلال . أخذ يدور بها ، هل يريد أن يدوخها أيضاً ! ثم أنزلها فجأة إلى الأرض فلم تترنح الماكرة أو تغمض عينيها هنيهة ليرتد إليها بصرها من زوغانه ، بل هبطت فى خفة الريشة وعلى وجهها ابتسامة النصر واللذة ، هذا أول الرضا والصلح . . .

وبلع صاحبنا ريقه وتحرك فى مقعده قليلا . . . هو سعيد لأنه وجد فى هذا الراقص خير تعبير عن عواطفه ، وعن آرائه فى المرأة . . . هى حيوان لا يخضع إلا للسيطرة ولا يؤخذ إلا بالعنف كما كانت تؤخذ جداتها من سواكن الغابات . ولهذا فانه حين يتعرض للفتيات فى الطرقات يقابلهن برأس شامخ ووجه متجهم ، و إذا ظلت حياته إلى اليوم خالية من الظفر فى معارك الحب فيكفيه رضا أنه لم يذل لامرأة . حقا أنه جرى وراء بعضهن وفى قلبه لهفة وتضرع وعلى لسانه ألف استجداء ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا من قبيل التسلية ، وأما ارتداده خائباً كل مرة فشئ يحمد الله من أجله لأنه يحفظ عليه آراءه ومبادئه .

وأنّت أوتار الكمان أنيناً رقيقاً سيالا ، فإذا بجسم الفتاة يكاد يلتصق بجسم الفتى وذقنها بذقنه . . . والتفت ذراعه كالأفعى حول وسطها ، وسمت كفه إلى ما بين نهديها ، وخيل للحاضرين أنهما نسيا العالم والمسرح ومن فيه . . . نعم إن هذا هو الامتزاج والحب الذى من أجله وحده خلق الرجل . . . فنسى صاحبنا كبرياءه وسرح ذهنه ، فاذا به يرى نفسه بين يدى امرأة طيبة

القلب رقيقة اللمسة ، رقيقة الاشارة ، رقيقة الابتسامة ، تلفه كما تلف أغصان الشجر إنساناً ضالا فى حمارة القيظ ، من أنت ؟ وأين أنت ؟ أيا تكونين وأنى تكونين ؟ فأنا أنتظرك وسأجلس بين يديك أعترف أن كبريائى جراح أخفيها ، وأن رأسى لم يشمخ إلا لأنه لم يجد صدراً يستند إليه . ولو كشفت عن قلبى لوجدت معيناً من الحب والوفاء لا ينضب . . . ولو تنبه صاحبنا لوجد أن فتاة أحلامه تشبه هذه الراقصة شبهاً كبيراً ، غير أنها ترتدى ثوباً لم يعبث فيه المقص . . . ولكن هيهات ! أنى له كل هذا ؟ إنه فتى خجول منطو على نفسه ، بل هو مخلوق عجيب كأنما يتكلم بذهنه الثرثار ويفكر بلسانه الأخرس . . . وشاء المولى ألا يجود عليه كما جاد على هذا الفتى بالوسامة والرشاقة وقوة الإرادة ، واختلطت فى قلبه عاطفتان متناقضتان : إعجاب بالراقص وكره شديد له . . . وندم على مجيئه للمسرح ، وود لو أنه كان قد ذهب إلى السينما ؛ فهى بلسم النفوس الحزينة التى تشتكى الوحدة .

وبدأت الموسيقى تخف شيئاً فشيئاً وأقدامها تتثاقل معها حتى انتهى اللحن وهما على وشك أن يتبادلا قبلة خاطفة . ومالت الفتاة نحو الأرض وثنت إحدى ركبتيها لتحيى الجمهور . أما الفتى فقد ظل ممسكا يدها ، وحنى رأسه قليلا ، ثم رفعه فجأة وهو يبتسم . . . وأسدل الستار .

خرج صاحبنا يتنزه كعادته فى عصر اليوم التالى ، وسار فى الطرقات متمهلا وهو منكس الرأس ، وفى قلبه إيمان خفى بالمعجزات . . . ومرت به فتاة وثانية وثالثة ، ولكن لم تحس به واحدة منهن .

ووقف أمام واجهة متجر يعلن عن ورود نوع من الجوارب رخيص الثمن ، فدس يده فى جيبه وعد نقوده وتوكل على الله ودخل . ولم يكد يمر بين البائعين حتى وقعت نظرته فى قسم المنسوجات على اثنين من الزبائن جالسين وجهاً لوجه فى مقعدين أمام البائع : سيدة عجوز أطبقت يداها على محفظة قديمة كأنها تخشى أن تختطف منها ، وعلى رأسها قبعة من القش الأسود اللامع على شكل خودة ، وبين يديها شاب أصلع محنى الظهر مصفر الوجه كسير النظرة شاحب الجفن ، أصابعه الطويلة النحيلة الناتئة العظام فيها وجل الكلاب الضالة . قال صاحبنا لنفسه : « أين رأيت هذا الوجه ؟ أين أين ؟ وفجأة تذكر ، هذا هو الراقص البديع

بعينه ، ولكن أهذا ممكن ؟ لم تكن لمعة العين إلا من الكحل الأزرق ، والشعر الأسود مستعار ، وبهاء الوجه طلاء ، والخاتم « الماس بيره . . . » ووقف صاحبنا ذاهلا برهة ، ثم اقترب منهما وجعل ينظر إلى الأقمشة المعروضة وهو يسارقهما النظر والسمع ، فاذا بها تقول له بصوت تخالطه موسيقى الربو :

— لا تتعجل . ولنحسب حسابنا ، فالقماش غال ويكفيك أن تشترى مترين وثمانين سنتيمتراً . . . عليها لعنة الله . . .

— أليس من الخير أن نشترى ثلاثة أمتار كاملة ، فقد أحتاج فى المستقبل إلى تغيير « الياقة » .

— الآن عقلت ! وأين كنت حين هجمت عليك هذه الدنيئة ومزقت « فراكك » وأنت ولى نعمتها وكيف لم تنقذ نفسك منها ؟

— قلت لك يا أماه ألف مرة إننى خفت أن يرتفع الستار مرة أخرى إذ كان الجمهور لا يزال يصفق .

— أنت أحمق ! كان يجب حين أصرت على فسخ عقدها معك وأنذرتك أنها تراقصك ليلة أمس آخر مرة أن تصفعها على وجهها وتطردها . ولكنك هددتها بتمسكك بالعقد . . . ولماذا ؟ ألم يتركك كثيرات غيرها فلماذا آثرت هذه المرأة ؟ عساك سقطت فى حبائلها وفتنتك وظننت أنك تحبها . . .

فأجابها بصوت حزين فيه وسوسة الكذب :

— تعلمين يا أماه أننا لا نخلط فى مهنتنا بين العمل والعاطفة .

— هذا درس لك . وبعد فأنت لم تخسر شيئاً ، ولكنى أنا التى أضعت جهدى وتعبى ، فقد أبقيته لك جديداً عشر سنوات واحتفظت به كانسان عينى ، ولكنك أضعته فى طرفة عين بفضل هذه الساقطة . وإذا دامت حماقتك فخير لك أن تترك الرقص الكلاسيكى إلى الرقص البهلوانى ، فهذا أليق بك وأسلم .

وخرج صاحبنا من المتجر مهرولا ، وسار فى الطرقات يتعرض للفتيات تارة بابتسامة ذليلة وتارة بكبرياء وهو رافع الرأس متجهم الوجه . . .

ولا يزال إلى اليوم فى حيرته . . .

محيى حقى